

ظاهرة التناسل في أدب الشيخ حمو بن عمر فخار (*) (فن الخطابة أنموذجا)

الباحث. محرز عبد السلام
ماجستير تخصص دراسات لسانية تطبيقية
جامعة غرداية

ملخص:

هذه الورقة البحثية تبرز تجليات ظاهرة التناسل في أدب الشيخ حمو فخار عامة، وفي خطبه خاصة، انطلاقا من مفهوم التناسل كظاهرة أدبية في الدراسات النقدية الحديثة، ومقارنة بالاقتراس والتضمين في البلاغة العربية القديمة. وقد قام هذا البحث برصد الظواهر الجلية والخفية من التناسل من خلال تلك الكتابات الأدبية والخطابات المنبرية للشيخ، وإبراز التعانق بين النص الحاضر والنص الغائب وهو ما سنستعرضه في هذا البحث، وفي النهاية تظهر شخصية الأديب متشعبة بالثقافة الإسلامية والأدبية من حيث اهتمامه بالنص القرآني والحديث النبوي، وكلام العرب شعرا ونثرا وحكما وأمثالا.

Abstract:

This research paper highlights the manifestations of intertextuality in the literature of Sheikh Hammou Fekhar in general, and in his speeches in particular, based on the concept of intertextuality as a literary phenomenon in modern critical studies, with a comparison to quoting and modulation in ancient Arabic rhetoric. This research has monitored the observable and the hidden facts in intertextuality through the literary writings and preaches of the Sheikh, highlighting the interrelation between the present text and absent text which we will reveal in this paper. Ultimately, the writer's personality appears to be deep-rooted in Islamic and literary culture in terms of his personal interest in the

Qur'anic text and the Prophet's Hadiths on one hand, the Arabic poetry, prose, maxims and proverbs.

تمهيد:

يعدّ النص في الدراسات النقدية الحديثة وعاء مفتوحاً على كلّ التيارات النقدية، والاتجاهات اللسانية في إطار علاقات تبادل التأثير والتأثر. فالنصوص الأدبية مهما تعدّدت طبائعها، وتنوّعت مجالاتها، وتباعدت أزمنتها، تتفاعل في ما بينها وتتعلق مع بعضها البعض؛ حتّى يتولّد من رحم التبادل والتفاعل نص جديد، فيكون هذا الأخير عبارة عن عدّة نصوص منفتحة على بعضها تشكّل في إطارها المعرفي، ومجالها اللساني بواسطة علاقات تبادلية وتفاعلية بين مختلف النصوص التي أثّرت في النص الأصلي بصفة مباشرة أو غير مباشرة فتتمدّ ذلك النص بطاقة جديدة، وديناميكية فاعلة ومستمرة؛ فالنص مهما كانت طبيعته لم يخرج من العدم، بل يعتبر امتداداً لنصوص سابقة له.

تشكّلت في إطار الدراسات النقدية المعاصرة عدّة مصطلحات توضّح مفهوم افتتاح النصوص على بعضها وتعايقها، منها الحوارية، والتعلق النصي، والتلاص، والتداخل النصي، والتناس... ويعدّ المصطلح الأخير أكثر شيوعاً وانتشاراً في الدراسات النقدية المعاصرة. فما مفهوم التناس؟ وهل يختلف مفهومه بين النقاد القدامى والنقاد المحدثين؟ وكيف تجلّت ظاهرة التناس في أدب الشيخ حمو فخار بصفة عامة، وفي خطبه بصفة خاصة؟

1 - مفهوم التناس:

يعتبر مصطلح التناس أكثر المصطلحات المرادفة له انتشاراً، وقد ولد في اللسانيات البنوية واللسانيات النصية، وحسب ما يراه (مارك أنجونو) أنّه انتقل إلى حقل الشعر، فوجد في مفترق المصطلحات القديمة كالاقْتباس والتضمين والمحاكاة واستعادة النماذج ونظريات النص الحديثة. تعدّدت تعريفات هذا المصطلح، واختلفت بين القدامى والمحدثين:

أ - مفهوم التناس عند النقاد القدامى:

يعتبر (الجاحظ) التناسل موقوفاً على الأمم كالهند واليونان والفرس، ولأنّ العربيّ أميّ لا يكتب، يبدع ولا يقلّد فقد اصطبغ الطبع العربي بالسليقة والإلهام دون خضوع لثنائية التأثير والتأثير؛ إلّا أنّه يقرّر بعد ذلك لأدباء العرب فكرة التناسل كما لأدباء الأمم الأخرى، فقد ظهرت عند العرب في كلامهم وكتاباتهم بما علق بذكرتهم من فكر وما احتوته صدورهم من نظم، وبيّن مفهوم التناسل بقوله: "لا يُعلم في الأرض شاعر تقدّم في تشبيه مصيب تلم، وفي معنى عجيب غريب، أو في معنى شريف كريم (...) إلّا وكلّ من جاء من الشعراء من بعده أو معه، إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدّعيه بأسره، فإنّه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكاً فيه، كالمعنى الذي يتنازع الشعراء فتختلف ألفاظهم، وأعارى أشعارهم، ولا يكون أحد منهم أحقّ بذلك المعنى من صاحبه"⁽¹⁾.

إنّ التناسل عند الجاحظ يتملّ في السرقات الشعرية؛ فالمتأخّر يتأثر بالمتقدّم وذلك من خلال أخذه بفكره وألفاظه جزئياً أو كلياً، وقد يشتركان في المعنى الذي يتنازعونه، فلا تجد فكرة أو معنى خاصاً بواحد منهما.

وأما فكرة التناسل عند (ابن طباطبا) فهي تقوم أساساً على:

- أن يكون التناسل لدى الأديب خفياً غير جليّ، أي لا يغيّر إغارة مكشوفة على معاني غيره فيسلبها؛ لأنّ ذلك وصمة عجز للقرينة عن الإبداع.
- أن يمعن الأديب النظر في مختلف الأشعار، فتتقدح في قريحته معانيها وأفكارها وحتى ألفاظها، فتتشكّل سببته الشعرية، ويستبدل⁽²⁾. من مختلف تلك السبائك سبيكة واحدة أي شعراً واحداً، أو تنساب إلى شعره كما تنساب السيول الجارفة من مختلف الشعاب في واد واحد، أو يركّب شعره من ألوان الأشعار المختلفة كطيب مركّب عن أخلاط من الطيب، وفي تعريفه للتناسل يقول: "(...) الأديب يختار من الأشعار ما تلتصق معانيها بفهمه وترسخ أصولها في قلبه وتصير مواده لطبعه، ويذوب لسانه بألفاظها، فإذا جاش فكره بالشعر أدّى إلى نتائج ما استفاده ممّا نظر فيه من تلك الأشعار، فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف التي تخرجها المعادن، وكما قد اغترف من واد قد مدّته سيول جارفة من شعاب مختلفة، وكطيب تركّب عن أخلاط من الطيب كثيرة فيستغرب عيانه، ويغمض مستبطنه"⁽³⁾.

ومفهوم التناص عند ابن طباطبا هو تشكّل الشعر الحاضر من مختلف الأشعار الغائبة، والتي تعلّقت أفكارها ومعانيها وألفاظها بالشاعر، فصنع منها الشعر الذي يريده. فالتناص عند القدامى متوقف على مفهوم السرقات الشعرية والتقليد؛ فالشاعر يتأثر بمن سبقه فيأخذ من أشعاره ما يمكنه من نظم شعره.

ب- مفهوم التناص عند النقاد المحدثين:

لقد ظهرت فكرة التناص في الدراسات النقدية والدراسات اللسانية الحديثة، فمن الباحثين في التناص؛ (باختين) و(كريستيفا) و(أريفي) و(لورانت) و(ريفاتير) و(جيراجينيت)... فالتناص عنصر جوهري في وظيفة اللغة في النص، وقد عرّفته (جوليا كريستيفا) من خلال تحليلها أعمال (باختين) الذي لم يستعمل المصطلح ذاته، بل استعمل مصطلح "التفاعل اللفظي" و"الحوارية"، التي يعتبرها تبادلاً للأقوال على شكل حواريين "باث" و"متلقٍ" في إطار العلاقة المشتركة القائمة على السياق التواصلية بينهما، إلا أنّ (كريستيفا) ترى النص عبارة عن "فسيفساء من الاستشهادات"⁽⁴⁾.

فالنص جملة من نصوص مقتبسة، تذوب في بعضها وتكون القوة والوجود للنص الذي اشتركت في نسجه وبنائه⁽⁵⁾. وكما أنّ (كريستيفا) وظّفت في إنتاج النصوص مصطلح "التصحيفية" والتي تعني به: "امتصاص معاني نصوص داخل الرسالة الشعرية"⁽⁶⁾. فالتصحيفية هي احتواء معاني النصوص الغائبة داخل النص الحاضر، ومن هذا المصطلح تولّد مصطلح التناص عند (كريستيفا) في النقد المعاصر، والذي كان أكثر حداثة من المصطلحات المرادفة له، فاعتبرته أساساً لولادة النص الحاضر ومرجعية النصوص الغائبة والممتدة عبر التاريخ.

وتشير (كبريات أركسيوني) إلى أنّ التناص "مبدأ انسجام داخلي، وحوار كاتب مع كاتب آخر، وحوار كاتب مع نفسه وحوار مع أشكال أدبية ومضامين ثقافية"⁽⁷⁾. إنّ التناص عند (أركسيوني) يتمثل في مبدأ العلاقة الداخلية التي تربط بين نص ونصوص أخرى مبنى ومعنى، وكذلك حوار

بين الآخر والأنا من جهة، وحوار بين نص وآخر من حيث المضامين الفكرية والثقافية والاجتماعية من جهة أخرى. فالتناص يعطي نفسا جديدا للنصوص مبنى ومعنى، ومجالا واسعا للتأثير والتأثر ويدعها مفتحة على بعضها، ويتعلق بنصين أو أكثر، فالنص المحيل إلى نص آخر يسمى بالنص (الحاضر) أو (المقروء) أو (المتعالي العيني) أو (اللاحق) أو (المعارض)، بينما يسمى النص المحال إليه بالنص (المركزي) أو (الغائب) أو (الأصلي) أو (التحتي) أو (المخفي)⁽⁸⁾.

وعلى ضوء التعريفات السابقة فإن التناص عملية لسانية تواصلية تحدث على مستوى النصوص، نصوص حاضرة ونصوص غائبة تتحاور وتتفاعل في إطار التأثير والتأثر ضمن العلاقات القائمة بينها.

2 - تجليات التناص في أدب الشيخ حمو فخار (الخطابة - أنموذجا):

إذا كان للتناص تعريفات عديدة، فله من جهة أخرى أنواع منها؛ التناص الديني المتمثل في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والتناص الأدبي يشمل الأشعار والحكم والأمثال، وقد يكون تناصا تاريخيا مستلهما من الحوادث التاريخية، وكلّ هذه التناصات تبدو جلية أو خفية، شعورية أو لاشعورية؛ فالشعوري مرغوب عنه، واللاشعوري مرغوب فيه⁽⁹⁾.

فالتناص ظاهرة شائعة في كتابات الشيخ الأدبية، سيما في فنّ الخطابة (الدينية والاجتماعية) ويوعز ذلك إلى تشبّعه بالثقافة الدينية والثقافة الأدبية، وفنّ المقال الذي كتب فيه أكثر ممّا كتب في فنّي القصة والمسرحية، وسنعرض نماذج من التناص في بعض كتاباته وخطبه خاصة.

أ - التناص القرآني:

ما يزال القرآن الكريم منبعاً عذبا صافيا يستلهم من الأدباء كتّابا وشعراء الصور الفنية والمعاني الراقية في مختلف إبداعاتهم النثرية والشعرية؛ لإضفاء الجمالية الأسلوبية على نصوصهم. والشيخ نموذج من أولئك الذين تأثروا بالقرآن في مجال الإبداع الأدبي.

وفي كلمة افتتاحية للمهرجان الثقافي التاسع لنادي الإصلاح حين تحدّث عن الميوعة والانحلال الأخلاقي الذي تشهده بعض المهرجانات باسم

الثقافة يقول: "... وبكلمة جامعة: بهدر العلاقات الإنسانية، ومحو القيم الأخلاقية، وإحياء النعرات القبلية، وإنعاش الطائفية، والقومية العربية؛ كل ذلك تحت شعار "الثقافة" ولو كان من نوع العاديات صباحا، والموريات قدحا والمغيرات صباحا على التعاليم السماوية، والمآثر الإسلامية، والسنن النبوية"⁽¹⁰⁾.

فالأديب في كلمته يعيد كتابة النص القرآني الغائب، ويوظفه توظيفا فنياً بطريقة الامتناسص للآيات الكريمات: ﴿وَالْعَدِيَّتِ صَبَحًا ۝١﴾ فَأَلْمُورِبَتِ قَدَحًا ﴿٢﴾ فَأَلْمُغِيرَتِ صَبَحًا ۝٢﴾⁽¹¹⁾. وفي هذا التناص إشارة دلالية إلى نبذ الثقافة التي لا تخدم القيم ولا تحتفل بالأخلاق الفاضلة مهما كانت طبيعتها، ومهما كان الشعار الذي ترفعه، ومهما كان المجال الذي تنطرق إليه، وكما أن في المقطوعة بنية عميقة تتمثل في التمسك بالثأفه وترك المفيد النافع. ومما ورد في افتتاحه المهرجان الثقافي الثالث عشر لنادي الإصلاح، حين تحدث عن رصيد العبادات والتقاليد في الوسط الاجتماعي، قوله: "فلنصف إليه ما لا يزال ينقصنا في كثير من المجالات، في مجال المعاملة و"الدين المعاملة" وفي مجال الاقتصاد بنفض أيدينا من أكل الربا، الذي لا يقوم آكله إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس"⁽¹²⁾.

تقاطع النص الحاضر للأديب مع النص القرآني الغائب: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ﴾⁽¹³⁾.

فالتناسص هنا يشير إلى الحالة النفسية والعقلية التي يعيشها أكل الربا، وخطره على الاقتصاد، وكما يحمل دلالة ضمنية في اهتمام الفرد أو المجتمع بالعبادات والعبادات وإهماله جانب المعاملات التي هي أساس الدين.

وفي تقرير له عن فرع من فروع النادي الثقافي يقول: "وهكذا الفرع ما ينفك في صمت يعمل دائما في كل عرس وماتم، لا مغنيا ولا فاتحا، ولكن شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا"⁽¹⁴⁾. فالأديب يستنصص بطريقة فنية جميلة تثري معناه وتدعم فكرته وتكمل أسلوبه من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾⁽¹⁵⁾ وداعيا إلى

الله بإذنه وسراجا منيرا⁽¹⁶⁾. فالمهمة التي يقوم بها الفرع في مناسبات الأعراس والماتم هي توجيه الناس ودعوتهم إلى الخير، بالكلمة الأدبية والمسرحية الهادفة، والهدف من ذلك استثمار مواهب الطلاب وإبداعاتهم، وتكوينهم لتحمل أمانة إرشاد المجتمع وتوجيهه.

وفي الخمسينات ألقى كلمة في عرس نجل أحد أصدقائه، ومما جاء فيها قوله: "فمن سره أن يطلع على خير تأليف لأول مؤلف بحق، في ما أعرف من أبناء العاصمة، فليطلع على كتاب "بذور الحياة". هناك يجد المنفلوطي في أسلوبه المشرق، وآرائه الصافية في الأدب والاجتماع، وآهاته المتصاعدة على الوطن المنكوب، ونفسه الذاهبة حسرات على ما مُني أبناء شعبه من إهمال، وأصيبت به الأمة من قحط الرجال"⁽¹⁶⁾. وهنا

يستحضر الأديب النص الغائب وهو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ

حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾⁽¹⁷⁾. إشارة دلالية إلى أن الذي يدعو الناس يحسّ بالوضع الذي تعيشه الأمة أو بعض أفرادها، أو المحن التي يعيشها وطنه، وهذا دليل الغيرة والشعور بواجب المسؤولية. وكما تشير البنية العميقة إلى الروح الإنسانية والهمة التي يتميز به الغيور على أمته ووطنه.

وفي خطاب ألقاه بمناسبة فتح دار للعلم يؤمها الطلاب في أيام الراحة والعطل قوله: "كنلكم إقامة دار لبعثاتنا العلمية تارز إليها أيام راحتها بالواحة الظليلة الهادئة، كانت ستبقى في باطن الوجود فكرة ضائعة، وأمنية حلوة لا منفذ لها للتحقيق، وحلما لذيذا في واد من الغفلة والتواكل والتسويق

السحيق. لولا.. لولا أن ألقى الله ذلك في روع فتية أشبه في مجازفتهم بالإخوة المغرورين، بيد أنهم آمنوا بربهم وزادهم هدى. فملك الفكرة عليهم مشاعرهم، وملأت أقطار نفوسهم⁽¹⁸⁾. تعانق النص الحاضر مع

النص الغائب في قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى﴾ (١٣)

﴿١٩﴾. أحدث جمالية في أسلوب الخطيب وقوة في الإيحاء المتمثل في وجود يقين في نفوس الفتية المقتنعة بفكرة إنشاء دار علم تكون منارة إشعاع للأمم يستغلها الطلاب أيام الراحة لتقجير طاقاتهم، وإبراز مواهبهم، وبإيمان الفتية بهذا العمل الصالح هداهم الله وألهمهم الصواب.

وفي نفس الخطاب يقول: "... (ثم تثبت جيدا في العقد المنظوم ينجل لك عن ضرير شامخ الرأس، هو واضع الحجر الأساس في البعثة العلمية بالقرارة (...)) ثم ارجع البصر كرتين خلفك وأمامك ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير مما يتبدى لك من أطواد العلم وفحول المعرفة ورواد الصلاح، نفروا خفافا وثقالا كما نفر الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم ليلة الإسراء"⁽²⁰⁾.

نجد في الخطاب تناسخين؛ الأول هو قوله تعالى: ﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى

مِنْ فُطُورٍ﴾ (٢) ثم أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ (21).

يستتصص الأديب الآية الكريمة ليشير إلى الطود الشامخ والذي بعين بصيرته أنشأ البعثة العلمية بالقرارة فأعجز البصر عن إدراك هذا الإنجاز الذي حققه الضرير ما لم يحققه البصير، حيث كان مثار الإعجاب. والدلالة الضمنية في التناسخ تتمثل في كون الطموح الجاد لا تقعده الظروف مهما كانت طبيعتها.

والتناص الثاني في مقولة الخطيب من قوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١) (22).

وفي خطبة عيد الفطر وخروج الصائمين من مدرسة الصيام مستبشرين، سائلين الله تعالى حسن القبول، يصف الشيخ حالهم قائلاً: "تعرف في وجوهنا

نصرة النعيم" (23). يتقاطع قوله مع قوله الله عز وجل: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ

النَّعِيمِ﴾ (٢٤) (24). ويشير في السياق إلى الاستبشار وبعث روح الأمل في نفوس المسلمين الذين أتموا صيام شهر رمضان، ويحمل اللفظ دلالة ضمنية تعني الرجاء في نيل رضا الله الذي ينتظره المسلم يوم لقاء ربه، والنعيم الذي سيحظى به.

وحين تحدّث الخطيب عن السموّ الروحي والرجاء في رحمة الله تعالى قال: "أولا يحقّ لنا أن نأتمر بأمره فتفاعل خيرا بهذا العروج للسماء ذات

البروج" (25). وفي قوله امتصاص للنص الغائب وهو قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ

الْبُرُوجِ﴾ (١) (26). ويدلّ قول الشيخ دلالة واضحة على تلقّ المؤمن بإيمانه الصادق إلى عنان السماء أملا في أن يحظى بالمقام العليّ السنيّ، وفي التناص إيقاع موسيقي ترتاح له الأذن وتطمئنّ إليه النفس.

وفي قوله: "أعيزكم بالله ونفسي من الملق والمداهنة والمراوغة والنفاق، ومن الركون للذين ظلموا فتمسّنا النار..." (27). يستنصص ذلك من

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ

اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١١٣) (28). فبين النصين تفاعل، اعتمد الخطيب على الاستمداد الإشاري والدلالي إلى تحذير المؤمن من الصفات

الذّميّة؛ صفات الكافر المنافق الظالم نفسه حين رضي أن تكون من أهل النار.

ب - التناص الحديثي:

للأحاديث النبوية الشريفة حضور جليّ في خطب الشيخ نتيجة ثقافته الدّينية والأدبيّة وهو ما يلمس في بعض خطبه كقوله: "خرجتم إلى الدنيا من جديد..."⁽²⁹⁾. تناص خفيّ لحديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم القائل: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه ولو علمتم ما في فضل رمضان لتمنّيتم أن يكون سنة»⁽³⁰⁾. ويدلّ التناص دلالة واضحة على وجوب الاجتهاد في العبادات وإخلاص النية لله عزّ وجلّ رجاء رحمته وثوابه، وحتى يكون المؤمن مأجوراً مغفور الذنب، عليه أن يعي كُنه العبادة ويحتسب أجره عند الله، وقد زاد هذا التناص للتعبير جمالاً وقوة في دلالة المعنى.

وفي قوله أيضاً: "وبشّروا بالإسلام ولا تنفّروا، وصلّوا أرحامكم وإن قطعوا، واعفوا عمّن ظلمكم واصفحوا"⁽³¹⁾. تناص جليّ مع قول الرسول صلّى الله عليه وسلّم: (بشّروا ولا تنفّروا، وبشّروا ولا تعسّروا) وقوله: (صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمّن ظلمك)⁽³²⁾. وذلك إشارة إلى مواصلة السير في الطاعات وملازمتها كما كنّا في رمضان، والعمل على تحبيب الإسلام إلى قلوب الناس بالتّي هي أحسن دون تنفير أو تعسير، والتواصي بصلة الرحم لأنّ في ذلك إنساء في الأجل، وبسطاً في الرزق وإرضاء للرّب.

ويدعو لنفسه وللمؤمنين في إحدى خطبه التي يحثّ فيها المصلّين على عمارة المسجد قائلاً: "جعلني الله وإياكم ممّن رزق المسارعة إلى ذكر الله في كلّ الأوقات، وممّن حبّب إليه من دنياه ما حبّب لرسوله، وجعل قرّة عيننا في الصلّاة"⁽³³⁾. في نصّ الخطيب امتصاص لقول رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم: «حبّب إليّ من دنياكم ثلاث: النّساء والطّيب وجعلت قرّة عيني في الصلّاة»⁽³⁴⁾. وهذه إشارة إلى تقوية الإيمان، وترغيب الناس في

الفضائل، وحثّهم على المداومة في الطاعات، والإتيان بالنوافل. وقد أضفى التناسل على النص جمالا في اللفظ وقوة في الدلالة.

ج - التناسل الأدبي:

إنّ الخطيب لم ينطلق من فراغ في كتابة خطابه، بل كان يكتب ووراء تراث أدبي ضخم يغترف منه ما يشاء، ومتى يشاء، وذلك ممّا يناسب رؤاه الفنية وذوقه الجمالي، وفي ذلك بعث لتراث الأمم وإحياء للنصوص الأدبية القديمة، كي تظلّ معينا صافيا تنهل منه المخيلة التصويرية، لإثراء مخزونها الإبداعي ورصيدها الفكري. ونجد لهذا التناسل حضورا في كتابات الشيخ الأدبية، وخطاباته المنبرية.

وفي خطبة يتحدّث عن الهمة التي تبلغ بصاحبها الثريا، فيعطي نموذجا من حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو يتحدّى قومه باستمرار دعوته دون جزع أو ضجر، حتّى عمّت البوادي والحضر، فيقول: "تعالوا نستعرض شذرات من مواقف للرسول كانت وما تزال محلّ الإعجاب والإعجاب، معربة عن عصامية وعبقريّة، وجديرة بالافتداء والاكتساب؛ آذاه قومه الأقربون وظلم نوي القربى أشدّ مضاضة - فتابع نشر دعوته في إصرار وصرامة"⁽³⁵⁾. وقد تناسّل قوله مع قول الشاعر: وظلم نوي القربى أشدّ مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند⁽³⁶⁾. ففي هذا التناسل دلالة واضحة على شدة المعاناة والإيذاء الذي يتلقّاه الإنسان من بعض أقاربه، أكثر ممّا يتلقّاه من غيرهم، لكن الكيس من يواجه المواقف بحكمة وصبر، دون يأس وضجر، بل يصبر على فكرته التي اقتنع بها، والعمل الذي آمن به، مادام يحقق الغاية الأسمى وهي رضا الله تعالى، والهدف المنشود.

وممّا ورد في مستهلّ إحدى خطبه التي يتحدّث فيها عن الهجرة النبويّة والهجرة بعد الفتح قول: "اللهم صلّ وسلّم على محمّد الشّهم؛ الذي فارق الوكر، والوكر عزيز؛ وركب الخطر، والخطر محقق؛ وخلص نجيا إلى يثرب فرارا بدينه، وطلبا للحرية في إذاعته ونشره، فتركها سنة حميدة، وكلمة باقية للأحرار بكلّ ربع استنسر فيه البغاث، واستأسد البغاة على الهداة، وتريث الجهلة المهازيل، على الفضلاء البهاليل..."⁽³⁷⁾. وفي قوله

تناص مع المثل القائل: (إنَّ البغاث بأرضنا يستسر)⁽³⁸⁾. وبين النصين تقاطع، فيه إشارة دلالية إلى ما تلقاه الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم من مكائد أدّت به إلى الهجرة حماية لدينه، واستمرارا في نشر دعوته، ولكن ترك قوة تواجه ضعاف الذين أرادوا أن يتناولوا على الأقوياء في الدين الذي دعاهم إليه الحبيب المصطفى. وكما في التناص دلالة ضمنية على أنّ الغيور على دينه يهون كلّ شيء أمامه مهما عزّ شأنه. وقد أحدث هذا التناص إيقاعا موسيقيا في المقطوعة النثرية على مستوى اللفظ والمعنى.

وفي حديثه عن إفشاء السرّ يقول: "فالكلّ في مجتمعا كأمّ الحطيئة غرابيل من أوسع طراز، ومرايا فاضحة مفضوحة كالتلفاز؛ فلم تبقى ثقة في جماعة تبرم أمرا، ولا في صديق يحفظ سرا، ولا في مروعة تردع حرا"⁽³⁹⁾. في نصه تناص مع بيت الشاعر الحطيئة وهو يهجو أمّه:

أغربالا إذا استودعت سرا وكانونا على المتحدثينا⁽⁴⁰⁾.

في التناص إشارة إلى خطر إفشاء السرّ الذي استشرى في المجتمع، فانفصمت العلاقات بين أفرادها، وضاعت جرّاءه مصالحه. وفي ذلك دلالة ضمنية في تحسّر الخطيب من هذا المرض العضال الذي أصاب المجتمع، حيّر نوي الأبواب والعقول الراجحة في تشخيص الحلول.

وقد ورد في خاتمة خطبته حول موضوع الصلاة، متضرّعا إلى خالقه قائلا: "فلنتضرّع إلى السميع العليم، أن يجعلنا ممّن يلوذون بحماه المنيع العطوف الكريم، ويديمون طرق بابّه، إلى أن يدخلوا جنّة النّعيم"⁽⁴¹⁾. في دعائه تناص خفيّ يتقاطع مع بيت للشاعر الأموي (محمد بن بشير الخارجي) في قصيدته: "ماذا يكفك الروحات والدلجا" والذي يقول فيه:

أخلق بذّي الصبر أن يحظى وممن القرع للأبواب أن يلجا
بحاجته⁽⁴²⁾

اقتنص الخطيب المعنى ضمنا ليبين مدى يقين المؤمن بالله في كلّ حال، يرجو خير الله ونعيمه، ويداوم على الدعاء؛ يسأله حاجته في السراء والضراء، والله لا يخيب رجاءه.

وفي خطبة له يتحدّث فيها عن مأساة الحامل والمرضع والمطلقة فيقول: "فأين يعانون أيّها الرّجال ما تقاسي زوجاتكم من أهوال؟ تحمل الواحدة في كلّ عام أو عامين بطناً، يستقرّ في أحشائها مائتين وسبعين يوماً، مثقلة بحرّ الصيف الخالق تارة، وبرد الشتاء القارس تارة أخرى، يكسر الموت لها عن أنيابه دوماً خلالها، وكثيراً ما أنشبت المنيّة فيها أظفارها واختطفها اختطاف الرهينة من طائرة، وقال الناس ما لها...؟" (43). ففي قوله "وكثيراً ما أنشبت المنيّة أظفارها" امتصاص لقول الشاعر:

وَإِذَا الْمَنِیَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ (44)

وفي التناسل صورة فنية رائعة أضفت جمالية وقوة في المعنى المشار إليه في حديث الخطيب عن المأساة التي تعيشها بعض الزوجات مع أزواجهنّ أثناء فترة الحمل أو في حال الرضاع، وكثيراً ما جرّت هذه المشاكل التي تحدث بينهما إلى الطلاق دون مراعاة لظروف الزوجة، وكثيراً ما يؤدّي ذلك بها إلى أمراض صحية أو نفسية، أو إلى الموت. وفي قول الخطيب دلالة ضمنية إلى عدم إحساس بعض الأزواج وشعورهم بالحالات النفسية التي تتناب الزوجة في هذه الحالات، فتؤدّي بالزوج إلى تطليق زوجته دون النظر في ما يترتّب عن ذلك من عواقب.

ومما ورد في خطبته بعنوان: اتّقوا الله في النّساء، قوله: "أنا لا أجد في وسطنا -والمنة لله- ظاهرة الخادمة والمربية في الأسرة، ولكن أخشى تسرّب ذلك إلينا وشيوعه من الجهات المنتشر فيها في قطرنا، فبادرت مذكراً ومحدّراً من العواقب السيّئة، طالما أنّ "الوقاية خير من العلاج"؛ حرصاً على استقرار الزوجة في بيتها، لتحكّ ظهرها بظفرها؛ تضطلع بنفسها في إدارة مملكتها... كان الله في عوننا وعونها (45). في عبارة، تحكّ ظهرها بظفرها تناسل مع المثل القائل: (ما حكّ جلدك مثل ظفرك، فتولّ أنت جميع أمرك) (46)، يشير الخطيب دلالياً إلى ما للزوجة من دور أساس في تدبير شؤون بيتها، وتربية أولادها بنفسها دون الاعتماد على غيرها، إذ التربية التي يتلقّاها الأولاد من الأمّ أكمل من التربية التي يتلقّوها من غيرها.

والدلالة الضمنية للخطاب هي ضرورة مكوث الزوجة في البيت للقيام بواجبها على أحسن وجه.

ويقول في خطبة وإسلاماه...! "أحياني الله وأحياكم للقيام بالكمال، وصنع العظام، وأبعد عني وعنكم الأمانيّ الخلابة رأس مال المفاليس، والأحلام الذهبية ملهات الكسالى الخاملين، وألهمني الله وإياكم الرأي الصائب والفكر الثاقب، وأنار بصيرتي وبصيرتكم بالتفتح الذي لا تقيده التقاليد، والتجديد الذي يعتق الطريف ولا ينكر التلذذ"⁽⁴⁷⁾. يتقاطع قوله، وأبعد عني وعنكم الأمانيّ الخلابة رأس مال المفاليس، مع قول الشاعر:

إذا تمنيت بثّ الليل مغبطاً
إنّ المني رأس أموال المفاليس

أراد الخطيب أنّ الأمل يتحقق بالعمل، والعزم يحقق المكارم والعظام، ويوفق في تفتحه بين جديد وقديم أمّا الأماني الباطلة تسوق الكسالى المتوانين والخاملين إلى مراتع السراب.

الخاتمة

إنّ مفهوم "التناسل" له أصالة في التراث النقدي العربي، وقد أعاد النقاد المحدثون صياغة فكرته من جديد فكان اختلاف مفهومه بين القدامى والمحدثين، وكما أسهمت مختلف الاتجاهات النقدية في بلورة مفهوم التناسل، فالنص الأدبي نسيج لغوي ثري يروافد مختلفة ثقافية وتاريخية وأدبية وفكرية، ويكون مشحوناً بمختلف الرموز والإشارات والأمثال والحكم، تعدّ مخزوناً يستمدّ منه الأدباء ما يثري نتاجهم الأدبي.

وقد كان الشيخ حمو فخار من بين أولئك الأدباء الذين يتمتعون برصيدهم العلمي والثقافي والأدبي، ويتفاعلون مع مختلف النصوص الأدبية والتاريخية التي خبروها واستوعبوها لتشنّ نتاجاتهم بهذه الطاقة الحيوية التي تضيف عليها عمقا في المعنى، وجمالا في الأسلوب، وقوة في الدلالة. ومن خلال عرض نماذج التناسل من خطب الشيخ، سواء من حيث التناسل

القرآني أو التناص الحديثي أو التناص الأدبي، لمسنا الثقافة الرّصينة التي تشبّع بها الشيخ، والتي كانت له زادا لنصوصه الأدبية وخطاباته المنبرية.

إحالات الدراسة:

- (*) الشيخ حمو بن عمر فخار رائد من رواد الحركة الإصلاحية في الجنوب الجزائري، ولد بغرداية في 20 سبتمبر 1919 م. نشأ في أسرة أصيلة، محافظة على الأخلاق القرآنية والتربية الإسلامية الصالحة.
- تعلم المرحلة الابتدائية بقسنطينة، فميسقط رأسه ثم انتقل إلى القرارة عام 1937 م ودرس بمعهد الحياة إلى أن تخرّج فيه عام 1946 م. درس بمدرسة الإصلاح بغرداية، فكان يرى بأن يكون المرّبي أبا روحيا قبل أن يكون معلّما أو أستاذا. عُيّن مديرا علّما خلفا للشيخ صالح بأكبر، بعد أن كان نائبا له.
- ملك ناصية اللغة والأدب من خلال اغترافه من معين القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وإطلاعه على كنوز الأدب العربي شعرا ونثرا وحكما وأمثالا. توفي يوم 17 جوان 2005م.
- من آثاره: من خطب الجمعة في ثلاثة أجزاء، وجزء خصّصه لخطب الأعياد (عيد الفطر وعيد الأضحى)، «وقفات ومواقف» كان حديثا حسنا (مناقب القائد المرّبي الشيخ إبراهيم بيوض) على درب الأنبياء، الشيخ صالح بأكبر، الشيخ بابا تامر بوعروة، حياته وآثاره.
- (2). مصطلح «استبدال» لجوليا كريستيفا، وتعني به استبدال نصوص كثيرة بنص واحد.
- (3). ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع، القاهرة، د.ط. د.ب.ط. ص: 14.
- (4). حسين خمري، نظرية النص، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ط1، 1428هـ/2007م، ص: 254.
- (5). عبد الجليل مرتاض، التناص، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، د.ط. د.ب.ط. ص: 13.
- (6). جوليا كريستيفا، علم النص، تر، فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1991م، ص: 78.
- (7). محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006م، ص: 315.
- (8). جمال مباركي، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، دار هومة، الجزائر، د.ط. د.ب.ط. ص: 43.
- (9). عبد الجليل مرتاض، المرجع السابق، ص: 05.
- (10). حمو بن عمر فخار، وقفات ومواقف، المطبعة العربية، نهج طالبي أحمد، غرداية، الجزائر، د.ط. د.ب.ط. ص: 17.
- (11). سورة العاديات، الآيات: 1 - 4.
- (12). حمو فخار، المرجع السابق، ص: 30.

=

- (13). سورة البقرة، الآية: 275.
- (14). حمو فخار، المرجع السابق، ص: 94.
- (15). سورة الأحزاب، الآية: 46-45.
- (16). حمو فخار، المرجع السابق، ص: 128.
- (17). سورة فاطر، الآية: 08.
- (18). حمو فخار، المرجع السابق، ص: 55، 56.
- (19). سورة الكهف، الآية: 13.
- (20). حمو فخار، المرجع السابق، ص: 57.
- (21). سورة الملك، الآية: 04.
- (22). سورة التوبة، الآية: 41.
- (23). حمو فخار، من خطب الأعياد، ج4، ص: 08.
- (24). سورة المطففين، الآية: 24.
- (25). حمو فخار، المرجع السابق، ج4، ص: 09.
- (26). سورة البروج، الآية: 01.
- (27). حمو فخار، المرجع السابق، ج4، ص: 18.
- (28). سورة هود، الآية: 113.
- (29). حمو فخار، المرجع السابق، ج4، ص: 43.
- (30). الربيع بن حبيب، المسند الجامع الصحيح، رقم الحديث: 327، تح: أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، المطبعة السلفية، القاهرة، ط2، 1349 هـ، ص: 65.
- (31). حمو فخار، المرجع السابق، ج4، ص: 44.
- (32). رواية مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «يا عقبة بن عامر: صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك».
- (33). حمو فخار، من خطب الجمعة، ج1، ص: 07.
- (34). رواه النسائي، كتاب عشرة النساء، رقم 3878، ينظر: طرق رواية الحديث، الشوكاني، نيل الأوطار، ج6، ص: 163.
- (35). حمو فخار، المرجع السابق، ج1، ص: 51.
- (36). أبو عبد الله الحسين الزوزني، شرح المعلقات السبع، معلقة طرفة بن العبد، دار الأفاق، الأبيار، الجزائر، دط، دت. طه، ص: 35.
- (37). حمو فخار، المرجع السابق، ج1، ص: 103.
- (38). «إنَّ البغاث بأرضنا يستتسر» يضرب مثلاً للئيم يرتفع أمره، وقيل: معناه أي من جاورنا عزَّ بنا. ابن منظور، لسان العرب، مج1، ص: 662.
- (39). حمو فخار، المرجع السابق، ج1، ص: 125.

=

=

- (40). ديوان الحطيئة، رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني، دار صادر، بيروت، 1401 هـ، 1981 م.
- (41). حمو فخار، من خطب الجمعة، ج2، ص: 94.
- (42). البيت لمحمد بن بشير الخارجي من قصيدته التي مطلعها «ماذا يكفك الروحات والدلجا...».
- (43). حمو فخار، المرجع السابق، ج2، ص: 121.
- (44). البيت لأبي نؤيب الهنلي.
- (45). حمو فخار، من خطب الجمعة، ج3، ص: 122.
- (46). البيت للإمام الشافعي.
- (47). حمو فخار، المرجع السابق، ج4، ص: 227.